العنوان:	الاستشراق و كتابة التاريخ
المصدر:	مجلة الفكر العربي المعاصر
الناشر:	مركز الإنماء القومي
المؤلف الرئيسي:	شعيب، علي
المجلد/العدد:	ع 70,71
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1989
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	52 - 63
رقم MD:	430077
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	الاستشراق، المستشرقون، كتابة التاريخ ، الغزو الثقافي، المصادر التاريخية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/430077

الإستشراق وكتابة التاريخ

علي شعيب

اليوم، في ظل الدعوات، لإعادة كتابة التاريخ العربي، يبقى الاطلاع على نتاج المستشرقين من الأولويات الضرورية. فقد توافرت لهؤلاء المادة التاريخية العربية من قبل دولهم عندما استولت، وبأساليب مختلفة، على مجموعة كبيرة من الآثار المعدنية والحجرية والوثائق التاريخية الورقية الرسمية منها والخاصة. فضلاً عن أنَّ العدد الكبير من المؤرخين العرب أخذ بالمنهج الاستشراقي وبالنتائج التي توصلوا إليها في أحكامهم على الكثير من وقائع التاريخ العربي. فالاستشراق في كل مراحله كان يحاول التأثير على الثقافة الوطنية العربية لإعادة تشكيل وعي الجماهير وأنماط سلوكها فكرياً وشعورياً لخدمة مخططات أوروبا. وما زالت هذه الأخيرة تعمل، حتى اليوم، على تطوير تكنولوجي لوسائل إعلامها فتخضعه في وظيفته الأيديولوجية الثقافية لمصالحها. وفي علاقته بالمنطقة؛ العربية، لم يكتفِ الغرب بهجمته في هذا الميدان، بإغراق وسائل الإعلام العربية بسلع من ثقافته، بل يتدخل بما لديه من إمكانيات سياسية واقتصادية واجتماعية محلية في تقرير المضمون والنموذج الثقافيين لما ينتج محلياً من موادّ وسلع لهذه الوسائل.

تطور الاستشراق

اقترن تطور الاستشراق بطبيعة العلاقة بين الشرق وأوروبا. وثمة عدة عوامل كانت تدفع أوروبا إلى تطويره وتوفير الدعم المالي والمعنوي له. فقد اعتبر قادة أوروبا في العصور الوسطى أنَّ الفتح العربي الإسلامي لمناطق في قارتهم، والتوسع لما وراء جبال البرتات، هو بمثابة تحدٍ وجودي وحضاري لهم. تمثل التحدي الوجودي باندفاع الإسلام في أوروبا بقوة مما أعاق انتشار المسيحية وشكل تهديداً لها: ويقول المستشرق الإيطالي A. Cabaton: «إنَّ العرب منذ محمد يشكّلون خطراً حقيقياً على كل الأصعدة لكل أوروبا. لذلك بات من الضروري تعلّم اللغة العربية»[1]. أمَّا التحدي الحضاري فتمثل بإقامة الحكم العربي الإسلامي في أسبانيا وصقلية، مما فتح مواجهةً بين حضارة المسلمين وحضارة المسيحيين؛ كل يجد في دعوته السماوية الحقَ القويمَ، وفي الطرف الآخر عدواً يجب قهره. غير أنَّ الغرب أدرك أنَّ المواجهة مع المسلمين الغرب يجب أنْ لا تقتصر على المعارك الحربية فقط بل ينبغي أن تشمل استيعاب حضارة الخصم والمحافظة على وحدة الكنيسة الكاثوليكية التي أعترتها حركات دينية انفصالية.

في البداية، كان الاستشراق نزعة فردية لدى الباحثين في الغرب، إلاّ أنه بدا أكثر ما يكون تنظيماً وانتشاراً عندما أخذ الفاتيكان على عاتقه تشجيع الاستشراق، وذلك بفتح المدارس لتعلّم اللغات الشرقية على نفقته وباستقلال نفوذه لدى ملوك أوروبا ليحذوا حذوه في بلدانهم. كان نفوذ الفاتيكان ناتجاً عن امتلاكه للثروة ولتأثيره القوي على عامة الشعب. فوحدها كانت الكنيسة ملاذَ الثقافةِ والتعليم حتى اصطبغت الثقافة في العصور الوسطى بالصبغة الدينية. في تلك العصور كان العلماء هم أنفسهم رجال الدين، وما يقوله هؤلاء يتقبّله الناس، وما يرفضونه يرفضه الجميع، وكل تعاليمهم مسلّم بها لا تقبل النقض ولا تحتمل الجدل. وكانت اللغة اللاتينية هي اللغة الأساسية التي يجب أنْ يتعلمها ويتقنها كل فرد. بذلك اصبحت الحياة العلمية في العصور الوسطى مقيدةً بقيود الكنيسة. وباتت الكشوفات العلمية نادرة، ولم يستطع المشتغلون بالعلم أنْ يفكروا بطريقة فردية، بل كانوا يعتقدون بما قاله أسلافهم، واضعين نصب أعينهم تطابق العلم بما ترضى عنه الكنيسة[2].

في البدء اهتم الكرسي الرسولي بتدريب أدلاء باللغة العربية حتى يتسنى لهم القيامَ بخدمةِ الحجاج الوافدين إلى الديار المقدسة في فلسطين، ولهذه الغاية تأسس عام 1250 م. جمعية الجوّالين. وفي عام 1310 أوصى مجمع فيينّا الكنسي بإنشاء كراسي العبرية والعربية والسريانية في جامعات إيطاليا على نفقة الفاتيكان. فضلاً عن ذلك، كان البابا ينفق على عشرين طالباً إكليركياً من الشرق في باريس. ويشير /**إدوارد سعيد**/ في «الغرب المسيحي يؤرخ لبدء الاستشراق الرسمي بصدور مجمع فيينّا الكنسي»[3]. وبعد سقوط القسطنطينية بيد العثمانيين عام 1453 أصبحت

الطريق إلى الأماكن المقدسة محفوفةً بالمخاطر، حيث تمّ التعويض عن قلّة الأدلاء باللجوء إلى طبع دليل الحاج لبرنارد دي برايدنباخ؛ فاشتمل على أبجدية عربية كاملة مع طريقة النطق بها في حروف لاتينية وخريطة لمدينة القدس. فكان أول ما عرفت أوروبا من الطباعة العربية، ثم تكرّرت طبعاته إحدى وأربعين طبعة عام 1728 وتلاه دليل ثوريا نتيفوس بالشعر، وفيه المفردات العربية اللاتينية، ثلاثاً وعشرين طبعة 1505-1536[4].

وبلغت العناية بالتوراة ذلك المبلغ الخطر عندما قام لوثر في ألمانيا عام 1521 ليعلن إنكاره لسلطة الفاتيكان ودعوته لإصلاح الكنيسة، والتي أدّت إلى اعتناق عدد كبير للمذهب البروتستانتي. ولما كان الكتاب المقدس والتوراة أساسه، المرجع الوحيد للديانة المسيحية أجرى لوثر ومؤيدوه دراسات معمقة في هذين الكتابين ليحاربوا به سلطة البابا. غير أنَّ هذا الأخير قابلهم بميدانهم، فجيش مثقّفيه على اختلاف اختصاصاتهم، ومعظمهم يتقن اللغات الشرقية. ومنذ ذلك الحين اتّجه نشاط الطرفَيْن إلى الشرق مهد الديانة النصرانية فتناولوه في جغرافيته وتاريخه ولغاته وثقافته وتطوره للكشف عن خبايا الكتاب المقدس.

وبعد المرحلة الطويلة من الغزوات التي تعرضت لها أوروبا استقرت الغزوات والهجرات، وعندئذ اتخذت أوروبا تشكيلها السياسي الذي ظهر في العصور الوسطى. وبدأت العلاقات بين الدول الأوروبية تتطور وتنتظم. وجاء دور أوروبا لتستجمع قواها وتوجه نشاطها نحو التوسع والاستعمار الخارجي، فتبدأه بحوض البحر المتوسط الذي ظلَّ مركزَ النشاطِ السياسي والاقتصادي في العالم. وفي مطلع القرن السابع عشر استحوذت الدراسات العربية الإسلامية باهتمام جديد بدافع تغييرات نشأت عن علاقة جديدة بين الغرب والشرق العثماني، فرغم السيطرة العثمانية على البحر المتوسط وتهديدها الدائم لأوروبا كانت هذه الأخيرة تنظر إليها كخطر سياسي لا ديني. فالاحتفاظ بالعلاقة بين الطرفَيْن إبّان الحرب والسلم ارتكزت على معطيات سياسية تجاوزت الصراع الديني. البابا ألكسندر السادس (1431-1503) قبل عرض السلطان بايزيد الثاني بإعطائه مبلغاً من المال لقاء الاحتفاظ بأخيه الذي ينافسه على العرش في السجن[5]. وقد أدى العجز العثماني في أوائل هذا القرن تجاه الغزو الغربي «إلى إيقاظ الإنسان العربي الذي طرح على نفسه أسئلة جديدة. فالدولة العثمانية لم تعدْ (دولة المسلِمين القادرة)، ولا درعهم الواقي، بل أمست (رجلاً مريضاً) يجلب الداء لكل من يرتبط به. عاش الإنسان العربي العجز العثماني ورأى فيه عجزاً عربياً إسلامياً. وقد بلغ هذا أوْجَه عندما أصبحت (دولة المسلمين) ألعوبة الدولِ الكبرى التي قيَّدتها بسلاسل عديدة بطرق وأساليب مختلفة استناداً إلى «الامتيازات الأجنبية» والمعاهدات؛ بل يمكن القول إنَّ الاستعمار الأوروبي عَبَرَ إلى البلاد العربية بواسطة الجسر التركي وقبول السلطات العثمانية العاجزة»[6].

فالعجز العثماني تجاه الغرب أدّى إلى جعل الاستشراق، في آخر الأمر، أسلوباً غربياً لفهم الشرق والسيطرة عليه، ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكم فيه. وباختصار أصبح هذا المفهوم يهدف لإخضاع الشرق للغرب، وأداةً ووسيلةً للتعبير عن التناقض بينهما. ولهذا أقام المتخصّصون في الدراسات الشرقية نظرية منهجية متماسكة ومنطقية، تعبّر عن وجهات نظر محدّدة، وتستند إلى معلومات دقيقة ويقينة بقدر الإمكان هذه النظريات تم تدريسها ومحاولة نشرها على نطاق واسع خلال القرن الثامن عشر. وفي نهاية هذا القرن كان الاستشراق قد خطا خطواتٍ واسعةً في التأليف، في النحو، ومعجم اللغات الإسلامية؛ بينما لم يكتب في اللغات الإسلامية شيء عن أية لغة أوروبية. ثم تحوّلت مؤسسات الاستشراق إلى خدمة مخططات الغرب في الشرق. واحتل كبار المستشرقين مناصبَ مهمةً في هذه المؤسسات، وفي أجهزة وزارة خارجية بلدانهم. فقد سُمّي المستشرق الفرنسي سيفستر دي ساسي 1758-1838 مسؤولاً عن مدرسة اللغات الشرقية التي أسسها المجمع القومي الفرنسي في باريس سنة 1795 لتخريج المتخصّصين العاملين في السلك الدبلوماسي والتجاري في الشرق.

خلال القرن التاسع عشر، اقترن التحول في وضع البلدان العربية من محاولات ناجحة للاستقلال (حركات الانفصال عن الدولة العثمانية)، إلى التبعية الاقتصادية والسياسية، بتحول مماثل في اتجاه الثقافة العربية؛ ترتّب على ذلك إلى (تغريب) العرب وإنْ في نطاق ضيق للغاية، وكاد ينحصر في عهد محمد علي في تغريب طرق الإنتاج، وامتدّ في النصف الثاني من القرن إلى مختلف العادات الاستهلاكية والقيم الاجتماعية، وإلى الحركة الثقافية نفسها. وساهم في حالة التغريب التوجه الأوروبيّ لاستخدام عدد من القناصل وبأكثرية مسيحية لثقافتهم الغربية، ولمعرفتهم الكافية بأصول التجارة، ولا سيما اللغتين الإيطالية والفرنسية تكلماً وكتابةً. في هذه المرحلة تعزّزت مؤسسات الاستشراق ومؤسساتها الثقافية نتيجة التنازع الاستعماري الفرنسي الإنكليزي للسيطرة على

البلدان العربية. فقد أُنشئت دورٌ للطباعة باللغة العربية، وفُتحت مكتبات، ثم وضعت أبحاث في اللغة العربية وقواعدها من قبل عدد من المستشرقين، أو الواقعين تحت تأثيرهم، وخاصة من اللاتين. فطالب الأب اليسوعي **لويس شيخو** (جامعة القديس يوسف) بإنشاء أكاديمية عربية تضمّ ممثلين لكل الدول الناطقة بالعربية، وبتعليم اللغة العربية الأدبية. أما الأب **أنطوان الصالحاني** فقد طالب بأنْ تكون اللغة العربية هي اللغة الجامعة لكل الشرق. وفي سنة 1862 نشر الأب **Abougit** باللغة العربية كتاب (القواعد الغاليات في علم العربيات)، وأكمل الأب **حرفوش** أشهر أنتولجي (مغاني الأدب). هذا إلى جانب العديد من المؤلفات القيمة لعدد من المستعربين الجزويت، ومن أصل أوروبي مثل الأب **هنري لامنس**. وبذلك أصبحت جامعة القديس يوسف في بيروت أكبر مركز أدبي للعربية. وفي عام 1848 أحضر اليسوعيون من فرنسا إلى بيروت مطبعة حجرية صغيرة من نوع الأوتوغراف، وألحق بها قسم للتجليد فيما بعد. وسنة 1853 تبرع **الكونت دي تريمون** بمبلغ ستة آلاف فرنك ليشتري بها اليسوعيون مطبعة كاملة المعداتِ ليطبعوا عليها كتاب الاقتداء بالمسيح، ويوزعوه مجاناً على الناس. وبعد حوادث 1860 في جبل لبنان أصدرت المطبعة صحيفة الفاتيكان التي أنشئت للدفاع عن مجمع الفاتيكان، وهي أول صحيفة تصدر عن هذه المؤسسة. وعام 1870 أصدرت المطبعة مجلة «البشير» بدلاً من صحيفة **«الفاتيكان». ونشرت المطبعة كتب الفنون والآداب، خصوصاً أدباء لبنان، مثل البساتنة والشرتوني واليازجي والفاخوري**، وصدرت عنها أيضاً سنة 1898 مجلة **«الشرق»** التي أشرف عليها الأب **لويس شيخو** اليسوعي والتي أدّت للمستشرقين أجلّ الخدمات.

إنَّ مرحلة التقدّم الهائلة لمؤسسات ولمحتوى الاستشراق تلازمت مع مرحلة السيطرة الأوروبية على بعض مناطق الشرق في أواسط القرن التاسع عشر وفي ثلثه الأخير. فكانت الموجة الأولى تتّصف بإيجاد الجمعيات الاستشراقية باتافيا 1781، الجمعية الملكية الأسيوية، الجمعية الألمانية للدراسات الأجنبية وغيرها. أما الموجة الثانية فشهدت ظهور مؤتمرات المستشرقين التي انعقد أولها في باريس عام 1873. وكان عدد المؤتمرات التي عقدت حتى حرب 1914-1918 ستة عشر آخرها في فيينّا 1912، ولم ينعقد منذ ذلك الحين إلّا أربعة مؤتمرات[7]. وبمناسبة انعقاد المؤتمر الاستشراقي، كان يُقام معرضٌ للإنتاج الأدبي وللمخطوطات والكتب النفيسة الشرقية. كان المؤتمر يُفتح بحضور أباطرة وملوك ورؤساء من مختلف الدول الأوروبية، وتقوم مؤسسات رسمية وخاصة بالتبّرع بالمال لتغطية نفقات المؤتمر الذي كان يشارك فيه إلى جانب المستشرقين والقناصل المعتمدين للدول الأوروبية في الشرق، بعضُ المثقفين العرب. في مؤتمر عام 1883 الاستشراقي شارك **إبراهيم اليازجي وجورج يني** نائب قنصل أميركا في طرابلس الشام[8]. عام 1892 شارك **أحمد زكي باشا** الملقب بشيخ العروبة في مؤتمر المستشرقين في لندن بناء على اختيار الخديوي عباس له. فذهب إلى هناك وأقام في أوروبا ستة أشهر دَوَّن فيها مشاهداته في كتابه **السفر إلى المؤتمر**، ثمَّ انتهز زيارته إلى باريس للاهتمام بلمِّ شتات المخطوطات العربية ونشرها، وترجمة ما كتبه المستشرقون عن هذا التراث[9] عام 1931 شارك في المؤتمر الاستشراقي **طه حسين وأحمد أمين** عن مصر.

لم يلقَ الغزو الثقافيّ الأوروبي المتعدّد الأوجه المعارضة في البلاد العربية كما تواجه به الغزو العسكري، لأنَّ الإنسان العربيّ وجد نفسه، نتيجة شكل العلاقات العربية التركية، متأخراً عن ركب الحضارة البشرية مستعمراً وعاجزاً. حينئذ قامت جماعةٌ من المتنورين المسيحيين العرب بدارسة التاريخ من الكتب الأوروبية، ثم عاد هؤلاء إلى التواريخ العربية وطالعوها بنظرات مستلهمة من الكتب المذكورة، توصلوا من هذه الدراسات والمطالعات للدعوة إلى القومية العربية لتحلّ محل الرباط العربي العثماني القائم على عامل الدين الإسلامي. ومن الملفت للنظر. أنَّ صيغة الروّاد الأوائل في الشام كانت تكمن في الصيغة المثالية المعروفة (الجهل هو أصل جميع علل الشرق). وقد أصبحت هذه العبارة تقليدية بالنسبة للكتّاب العرب في القرن التاسع عشر، الذين أكدوا بأنَّ الجهل يؤدي إلى انحطاط الأخلاق والإيمان، وأنه يكمن في أساس الخور الروحي والسياسي والاجتماعي، ويساعد على انتشار روح الجبرية والشعور باليأس وخمول الفكر وانعدام الهمّة. وكان الأخذ بأفكار فلاسفة عصر التنوير الأوروبيّين في رأي الرواد، هو الوسيلة الوحيدة للنضال من أجل تحرير العقول من نير التقاليد التي كانت تكرّس نمط الحياة الإقطاعي، والتي كانت تعوق التقدم.

مع مرحلة السيطرة الأوروبية على الشرق في مطلع القرن العشرين، شهدت مؤسسات الاستشراق تقدّماً هائلاً. فقد كانت معظم الدول الغربية تدرّس اللغة العربية والبحوث الإسلامية في جامعاتها. يقول **إدوارد سعيد**: «إن حوالى ٦٠,٠٠٠ كتاب يتعلّق بالشرق الأدنى قد كتب بين 1800-1950 في الغرب»[10]. واستطراداً، فقد

تعاظمت في هذه المرحلة المؤسسات الاستشراقية، وراحت بعض المؤسسات التجارية في بلدان أوروبا تطالب حكوماتها بفتح مدارس على غرار مدرسة اللغات الشرقية في باريس، وعلى رصد مبالغ كبيرة من المال للمعلمين والدارسين في هذه المدارس. وتولى كبار المستشرقين الإشراف على إصدار دوريات وبمختلف الاختصاصات في شؤون الشرق. لكن طرأ تغيير في التوجه الاستشراقي، فبعد أنْ كان مركز الجاذبية للاستشراق في البداية هو ماضي البلاد العربية تركّز في القرن العشرين على حاضر هذه البلاد. غير أنّ اختلافات واسعة برزت في اهتمامات المستشرقين تبعاً لاهتمامات دولهم فيما يتعلّق بدراسة الشرق. كانت هولندا السبّاقة إلى ميدان الدراسات الشرقية في أوروبا لقرنين من الزمن. في حين كانت فرنسا في طليعة الدول الأوروبية التي أفردت حيزاً مهماً من اهتماماتها للدراسات العربية حتى أخذت شكلَ المشروعاتِ البحتة بعد حملة نابليون على مصر عام 1798. ووصل الأمر إلى أنْ أصبحت كل البعثات التبشيرية في الشرق العربي تحت سلطة ممثل فرنسا بعد القرار الذي اتخذه البابا ليون الثالث عشر عام 1888. إذ طلب من هذه البعثات وعلى اختلاف جنسياتها اللجوء إلى البعثات الدبلوماسية الفرنسية في حال اعترتها مشاكل مع السلطنة العثمانية[11]. وفي مطلع القرن العشرين اتّسمت موضوعات الاستشراق الفرنسي بالشمولية، فتراوحت بين البحوث العلمية والفرَق والمذاهب الدينية والأقليات العرقية والحكومات التي يراد تطويعها، وقائمة طويلة من الموضوعات الأخرى المختلفة التي تكشف عن تفاوت وتنوّع الاهتمامات: (تعداد سكاني للبلدان الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي في المغرب والمشرق العربي - معرفة العادات والتقاليد لسكان هذه البلدان)[12]. وقد برز الاهتمام الفرنسي المتزايد بالاستشراق من خلال الدوريات التي ظهرت في فترات مختلفة إلى جانب الجمعيات المتعدّدة، والتي ضمّت اختصاصيين في مختلف العلوم. إضافة إلى أنّ السلك القنصلي الفرنسي بقي يحظى بالاعتبار الأساسي في الشرق قياساً على الممثّلين الأجانب الآخرين. وفي عام 1914 وضع الضابط الفرنسي **Depui** قاموساً عربياً فرنسياً يتعلّق باللغة المحكية في دجيبوتي والبلدان المجاورة الأخرى: الصومال، اليمن الشمالية، والجنوبية[13].

ومع أنّ فكرة الاستشراق في الأصل، وحتى الحرب الأولى، كانت مشروعاً ثقافياً بريطانياً فرنسياً إلى حدٍ كبير، يلاحظ أنّ الإنكليز كانوا أقلّ اهتماماً قياساً على النشاط الفرنسي. ففي عام 1906 قامت حركة في لندن تحثّ على ولادة مؤسسة خاصة للدراسات الشرقية. وقد تألفت من الرجال المرموقين الذين يمثلون حوالى 15 جمعية تجارية وأدبية وتبشيرية، منهم (غرفة تجارة لندن وأكاديمية بريطانيا). ولقد انبثقت عن هذه الجمعيات لجنة خاصة لإجراء بحوث تتعلّق بموضوع نشاطها، حيث أصدرت نتائج ما توصّلت إليه في الكتاب الأزرق. يذكر الكتاب بالضرورة الملحّة لدراسة لغات وتاريخ وديانة وعادات الشرق. ويشير أيضاً إلى تجربة تعليم اللغات الشرقية في جامعة كانكز، حيث إنّ المال المخصّص للمدرسين لا يسمح لهم بتفرّغ كامل للدراسة. ويختتم الكتاب بالطلب إلى رئيس الوزراء البريطاني بإصلاح الوضع، وذلك بتأسيس مدرسة متخصّصة لتعليم اللغات الشرقية على غرار أكثرية البلدان الأوروبية الأخرى كبرلين وباريس. هذا وإذا أراد الإنكليز تثبيت وتحسين وضعهم الاقتصادي في الشرقين الأقصى والأدنى، فعليهم معرفة اللغات الشرقية الضرورية[14].

وبعد الحرب الأولى عاش الشرق والمغرب العربي من خلال فرنسا وإنكلترا، إمّا لخدمتهما أو لمحاربتهما أو لتلقّي تأثير حضارتهما. فالإنكليز شجعوا العرب على التجمع في مملكة مميّزة تضمّ شبه الجزيرة العربية، سوريا وفلسطين والعراق. هكذا، وبكل الطرق بدتِ العلاقة مع الغرب رئيسيةً في صيغة وعي عربي سياسي، أي وعي أعد ليتبلور في كيان سياسي متجاوزاً التقسيمات الإدارية السابقة. كانت فرنسا إلى حد واسع سبب فشل هذا التجمع، كما منعت إنكلترا، قبل قرن من الزمان، توحيد المشرق العربي تحت سيطرة محمد علي[15].

في هذا السياق، تأتي إيطاليا في المرتبة الثالثة من قائمة الدول الأوروبية المهتمة بتعزيز مؤسسات الاستشراق. فتزامن ذلك مع ارتقاء إيطاليا إلى لعب دور القوى العظمى، أي بعد احتلال ليبيا. حينئذ زادت تطلّعاتها السياسية والاقتصادية للسيطرة خارج حدودها مما أدّى إلى تغيّر في توجهات مفكريها، وبصورة أوضح ألزم المستشرقون الإيطاليون بالتبحّر في الميدان الواسع للدارسات الإسلامية والعربية. إنّ إيطاليا وارثة روما القديمة انعشت باحتلالها ليبيا التطلعاتِ التاريخية الثابتة نحو التوسّع في حوض المتوسط الإسلامي. وبعد القرن السادس عشر كان في العديد من المدن العربية. ولا سيما في أسلكتها البحرية، قناصل وممثلون تجاريون للجمهوريات الإيطالية التي سيطرت على مرافق التجارة مع هذه البلدان واستأثرت بها بضعة قرون. ولعبت بواخر هذه الجمهوريات دوراً كبيراً في نقل كبرى الحملات الصليبية. وكانت البندقية في أيام

ازدهارها تمول تعليم اللغات الشرقية لتجارها والأدلاء.

بقي الاستشراق الإيطالي حتى القرن التاسع عشر مرتبطاً بالنهج الفاتيكاني تجاه الشرق. وبعد هذا التاريخ أصبح لإيطاليا سياسةً خاصة بها نحو المنطقة. وفي العام 1910 أنشأت مؤسسة توارتيةً بتموين من البابا. فضمّت إلى مكتبتها أكثر من مائة ألف كتاب. وأضيف إليها ما جمعه الرحالة الإيطالي **Romain Pietro**، في القرن السابع عشر، من مخطوطات وكتب نادرة قبطية، وكذلك ما حمله المبشرون من مخطوطات الشرق. بعد السيطرة الإيطالية على ليبيا ازدادت المطالبة بإقامة مؤسسات استشراقية وتعليم اللغات الشرقية. فقد طالب المستشرقون الإيطاليون حكومتهم بإنشاء مؤسسة استشراقية في القاهرة لهم على غرار المؤسسة الفرنسية الأثرية الاستشراقية التي أنشئت عام 1908: وفي أيار 1913 ناقش البرلمان الإيطالي مسألة تعزيز مؤسسات الإستشراق في بعض المدن الإيطالية لتؤدي الدور نفسه الذي أُنيط بمدرسة اللغات الشرقية الحيّة في باريس. كان من نتيجة هذا التداول أنْ تقرّر إلقاء محاضرات حرّة في جامعة روما في القانون الإسلامي بإشراف **David Santillana** وهو من مواليد تونس. وفي نابولي كان يحاضر البروفسور **Lupo Buonazia**، وفي مدينة بالرم حاضر **Nallino**، وفي فلورانس حاضر **Faustin Lasinio**، وفي مدينة تيران حاضر **Italo Pizzi**[16]. وحتى الربع الأول من القرن العشرين كان الاستشراق الإيطالي مشهوراً بشخصيات ثلاث هي: غيدي وكانياني وناللينو. هذا الأخير تولى إدارة قسم الشرق الحديث في المعهد الشرقي الذي أنشىء عام 1921. وقد جعل منه مجلة مرجعية أساسية من تغطية الصحافة المحلية في كل البلدان العربية. فقد تحدّد برنامج هذا المعهد ونشاطه في العدد الأول من مجلة **Oriente Moderno** التي كانت تصدر عنه. ففي الافتتاحية، تحت عنوان «برنامجنا»، نجد كيف أنَّ هذه المؤسسة تدرك عملها، مؤكدة على الأهمية التي احتلها الشرق منذ الحرب العالمية الأولى، ويشار أيضاً إلى أن المجلة ستقوم بفرز الصحف الشرقية والأوروبية - بينها الروسية - لتستخلص منها المعلومات التي تهمّ رجال السياسة والأعمال. وسوف تشجع أكثر الحركة النشطة في إيطاليا للتدخل في المسائل الشرقية على غرار فرنسا وإنكلترا. وأخيراً تلخص الافتتاحية ميدان الدراسة للمجلة بالمواضيع التالية:

1 - مواضيع سياسية، تاريخية تعالج ماضي وحاضر دول الشرق.

2 - مواضيع ثقافية تتناول الحياة الفكرية، الدينية، الاجتماعية، لهذه الدول، وتطلع على آخر المؤلفات الجديدة.

3 - معالجة مواضيع اقتصادية لتوضع في خدمة رجال الأعمال والسياسة وعلماء الجغرافيا والمستشرقين[17].

وتعزيزاً للدعاية الفاشية التي قادها موسوليني أنشئت الكراسي العلمية في الجامعات الإيطالية، وحظيت البعثات التبشيرية بالدعم من الحكومات الفاشية. وأبرمت هذه الأخيرة اتفاقيات لاتران 11 شباط 1929 مع البابا التي أدّت إلى رفع سمعة روما الفاشية وتوثيق صلاتها بالفاتيكان وتقوية نفوذ إيطاليا الأدبي والثقافي والاقتصادي والسياسي في العالم[18].

أما في المانيا، فقد كان الاهتمام بالدراسات الاستشراقية يضاهي الاهتمام الفرنسي. فقد اهتم العلماء والباحثون الألمان بدراسة تطور الحركة القومية العربية ومتابعة مجرى الأحداث في البلدان العربية. وفي برلين سعت «الجمعية الألمانية للمعارف» إلى تقديم دراسات منظمة ومنهجية عن الوطن العربي من خلال المؤلفات والأبحاث التي تنشرها مجلتها «عالم الإسلام»، والتي كان يرأس تحريرها الدكتور Kampfmeyer. وقد عُنيت بنشر الوثائق والتحقيقات وكل ما يتّصل بالتاريخ العربي المعاصر والآداب العربية. ولعل أبرز هذه الدراسات التي اصدرتها تحت عنوان «دمشق» سنة 1926. وتتضمن العديد من الوثائق عن النضال العربي من أجل الحرية والوحدة والاستقلال[19]. وعند اعتلاء هتلر الحكم في المانيا ازداد الاهتمام بالدراسات الشرقية. فقد بلغ عدد المحاضرات المعطاة في الجامعات الألمانية عن الشرق حوالى 130 محاضرة عام 1933. وارتفع العدد إلى 265 محاضرة عام 1935. وفي سنة 1936 بلغ عدد المحاضرات حوالى 67 للقضايا العربية. تابع هذه المحاضرات حوالى 300 طالب. وتمّ إعداد 41 أطروحة سنة 1935 تعالج مواضيع استعمارية، وخُصّص منها 12 عن نشاط الأمبراطوريتين الفرنسية والإنكليزية في الشرق[20].

أما في روسيا فقد اهتم المستشرقون السوفيات بالمسألة المتعلّقة بمدى تأثير المبادىء والطروحات الإسلامية على البرامج السياسية للأحزاب المعاصرة وعلى أيديولوجيّي الشرق. ويجدر بالذكر أنَّ المسائل التي عالجتها الأبحاث نظر إليها في ضوء مظاهر التيارات الإسلامية المختلفة، فضلاً عن التصدي بالتحليل لمصادر ومراجع من مختلف البلدان الإسلامية من المغرب إلى الفليبين. كما تلقي

أبحاث المستشرقين السوفيات الضوء على الخصائص التي حدّدت تباطؤ عملية علمنة الفكر الاجتماعي والسياسي عند المسلمين في الإسلام باعتباره نظاماً أيديولوجياً[21]. وتنبغي الإشارة إلى أنّ المستشرق بليايف قد حقّق عملاً ضخماً في مجال تعريف الأوساط العلمية والاجتماعية السوفياتية بأعمال المستشرقين الإسلاميين الغربيين والأخصائيين في شؤون الأديان وبنقدها من وجهة نظر ماركسية[22].

الاستشراق والمادة التاريخية العربية

مهما قيل في الخلفية الاستعمارية التي طبعت نشاط المستشرقين يجب أنْ يقرّ بفضلهم في جمع شتات الكثرة من المخطوطات والآثار العربية، وحفظها في أمكنة خاصة بالاتفاق مع دولهم على أسس منظمة مما يسهّل عملية الاطلاع عليها عند الحاجة إلى البحث. ومع الوقت نشعر بهذا الفضل عندما نرى الإهمال يلفّ ما تبقى في البلاد العربية من آثار ومخطوطات عدا ما تعبث به أيدي اللصوصية. من هنا بات ما جمعه المستشرقون والرحالة مرتكزاً للمادة التاريخية العربية في مختلف العصور. ويشير أنور عبد الملك إلى هذا الوضع الفريد في خطورته «عشرات الآلاف من المخطوطات، وهناك من يقول إنّ عددها 140.000 توجد خارج العالم العربي، أي من الناحية العلمية ـ بمنأى عن متناول الباحثين العرب أنفسهم. من هنا، إنّ على هؤلاء الباحثين أن يعملوا، في معظم الأحيان، على مصادر غير مباشرة تعالج صلب التاريخ القومي والثقافي الذي هو تاريخهم»[23].

أما بالنسبة للتاريخ الحديث والمعاصر فإن الجزء الأكبر، بل الجوهري من المادة التاريخية العربية محفوظ لدى الدول الغربية. إنّ هذه الدول قد أقامت في عاصمة الدول العثمانية، وفي غيرها من المدن والحواضر الكبرى العربية سفراءَ وقناصلَ وممثلين تجاريين لبعض الوزارات وللمؤسسات التجارية الخاصة، واستمر وجود هؤلاء، وبسلطة أشمل، في عهد السيطرة المباشرة بعد الحرب الأولى. اعتاد هؤلاء الممثلون الرسميون والخاصون أنْ يرفعوا إلى حكوماتهم، وإلى الإدارات التي ينتسبون إليها العديد من التقارير والدراسات المفصّلة عن أحوال هذه البلدان وما إليها من مرافق وموارد، وما هي عليه من أوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية وتجارية وجغرافية وتاريخية وزراعية. فقامت في هذه الدول وفي بعض وزاراتها مستودعات تكدّست فيها عشرات الألوف من هذه الوثائق والمستندات الأصلية يقوم على حفظها وصيانتها وفهرستها والتعريف بها وتوثيقها نخبة من الاختصاصيين مما يسهّل الوصول إليها والاطلاع عليها. إلى جانب ذلك تحتفظ مراكز البعثات التبشيرية بعدد وافر من السجلات والمخطوطات التي تعتبر التاريخ الحقيقي لمختلف وجوه النشاط التبشيري في البلدان العربية[24].

من جهة أخرى، إنّ الجهد الذي بذله المستشرقون والمنقّبون الأثريون في جمع الآثار الحجرية والمعدنية لا يقل أهمية عن جمع المخطوطات العربية، وإن كان بدافع نهب الثروة الأثرية في البلاد العربية. ولقد حفظت هذه الآثار، وتم حل رموز بعض كتابات الشعوب القديمة التي بنت حضارتها في الشرق. وتعتبر مرحلة ما بعد غزو نابليون لمصر 1798-1801 فترة الاهتمام الاستشراقي بالتنقيب عن الآثار العربية. فقد واكبت حملة نابليون العسكرية بعثة علمية قوامها علماء أعلام في كل ضرب من ضروب ثقافة ذلك العصر، منهم الأثريون والمهندسون والمؤرخون والأطباء والمستشرقون القادرون على قراءة لغات الشرق قديمها وحديثها. العارفون بالأبعاد الحضارية للمكان من مختلف النواحي. وانضم إلى خدمة نابليون في مصر كبار الكهنة والمثقفين المسيحيين مثال الخوري **روفائيل** راهبة الذي كان يحسن الكتابة والكلام في عدة لغات شرقية وغربية. وكان باش ترجمان الديوان الكبير في مصر أيام حكم الفرنساويين فيها وهو من المؤسسين للمعهد الفرنسي فيها المعروف (L'institut de l'Egypte). واتخذ نابليون من هؤلاء المسيحيين وهم من اللبنانيين والسوريين كتّاباً ومترجمين في الدواوين[25]. اهتم علماء الحملة بالكشف عن الآثار القديمة. وفي منتصف تموز عام 1799 عثر بوتار على (حجر رشيد)، وهو حجر من الجرانيت الأسود. وقد وجدوا نقوشاً على وجه واحد منه فقط، عبارة عن ثلاث مجموعات من النقوش منفصلة بعضها عن بعض. أما النقوش العليا فكانت أربعة عشر سطراً بالهيروغليفية يليها اثنان وثلاثون سطراً، لم يعرف المكتشفون عنها شيئاً؛ ظنوا أولاً أنها كتابة سريانية، ثم أعلن بعد ذلك أنها بلغة (مجهولة)، ولو أنهم رجّحوا أن تكون باللغة العامية المصرية القديمة. أما النقوش التي تليها فكانت في أربعة وخمسين سطراً باللغة اليونانية القديمة ـ وبعد استيلاء إنكلترا على مصر تمّ نقل الحجر إلى المتحف البريطاني، وهناك نجح شامبليون في فكّ رموزه. وقد تبيّن أنّ النقوش المجهولة كانت كتابة ديموطقية[26]. وألّف لها أجرومية ومعجماً عام 1832، فوضع أساس علم الآثار المصرية، ومهد السبيل إلى العلماء للتنقيب عن عالم مفقود. وخلال رحلة في مناطق

مصر أحضر دنيون أحد أفراد البعثة الفرنسيةمعه إلى القاهرة حوالى 200 رسم تشتمل، إلى جانب صور التماثيل والمعابد وما إلى ذلك، على رسوم ونقوش هيروغليفية، كما أحضر معه بعض أوراق البردى التي عثر عليها في أثناء هذه الرحلة. عدا ذلك، اشترى بعض علماء الحملة الفرنسية مخطوطاتٍ عربيةً وقبطيةً بأموالهم الخاصة.

في منتصف القرن التاسع عشر وطئت قدم السياسة الغربية أراضي الشرق القديم، وعلى إثرها اقتحمت هذه المنطقة حملات علمية ترأسها رحالة ومستشرقون وفضوليون استرشدوا بفصول الكتب المقدسة، وبشروح وتعليقات العلماء عليها في مختلف الأزمنة. سارت الحملات على خطوات سياسة الغنم والأطماع، وعثرت على الكثير من تراث الشرق، كقطعة من الآجر، أو حجرة منقوشة وعليها حروف مسمارية، إلى غير ذلك، فالتقطها الغرب وحدّق بها طويلاً.

وبينما كان قادة الغرب يتطلّعون إلى الشرق ليستغلوا شتى مرافقه كانت الحملات العلمية تزيح التراب عن تماثيل الآلهة والملوك والعظماء فنهبت زينات القصور وسرقت كتب الآجر من مخازنها.

في أثناء فترة 1840-1851 اكتشف الضابط البريطاني رولينصن، من تفحصه لحجر بيزوتون، مغالق اللغة المسمارية. وتمكن أن يضع أساساً للدروس الآشورية والبابلية، وأنْ يفتح باب التاريخ القديم على مصراعيه بنتيجة الحفريات والاستدلالات الدقيقة فوق خرائب العواصم القديمة.

على أثر هذا الفوز تزاحمت أقدام غزاة الآثار فوق أراضي نينوى وبابل، وتسابقت دول الغرب إلى إنشاء الجمعيات العلمية وإيفاد أعضائها إلى الباب العالي في الأستانة، تحت ظل سفاراتهم لاستجلاب رضا العاهل العثماني وابتياع الامتيازات. فكانت فترة خطيرة ضحك الغرب بغنائمه العلمية الثمينة، وضحك الشرق بالدريهمات التي اقتنصها، ولم تمضِ سنوات قليلة على الحفر حتى كانت الباخرة الفرنسية كروموران تحمل إلى باريس النفائس الآشورية وتضعها في متحف اللوفر في إحدى القاعات من بناية المهندس لغان. وجرى تدشين المتحف الآشوري في الأول من أيار سنة 1947 زمن لويس الرابع عشر. انبعثت آشور وبابل بعدما انطمست معالمها، وبعدما طمرتها بالتراب ريح الأجيال، وانبعثت معهما شعوب أخرى ما عرفها التاريخ قبل الحفر والتنقيب كالسمريين والأكاديين والعيلاميين والكاسيين والأوراتيين والحثّيين، فعاد الشرق القديم إلى الحياة بلغاته وتواريخه وفنونه[27].

بعثة أوجين بوتا الفرنسية ونينوى.

كان بوتا بالموصل وكيلاً لحكومته في عهد الملك لويس فيليب 1830-1848. استغل وجوده فحاول اكتشاف نينوى مهتدياً بما إشارت إليه الكتب المقدسة عنها، إضافة إلى معلومات كان يحملها عن مدافن العاصمة الشرقية القديمة كما استمدها من المستشرق J. Mohel[28].

حمل بوتا حملته الأولى بجيش من العمال على تل قويونجق إلا أنه لم يهتدِ إلى الأبنية المطمورة، فكان حظه منها مقصوراً على شيء من القطع المسمارية. لكنه اطلع من الأهالي على موقع مدينة كسرى على مسافة 18 كلم من شرقي الموصل، فقصد الموقع بجيش من العمال، وتحرّى التلّ وقلب جهاته وعثر على تحف هامة شدّد عزائمه على مواصلة العمل حتى اكتشف عاصمة سرجون وقصره، وعني بتعقيب سير النار التي التهمت المدينة السرجونية، وعثر على أكوام الرماد وقطع الفحم والجدران المسودة بالدخان، ودخل قصر سرجون ونهب أربع عشرة قاعة ملوكية، واستولى على مكتبة القصر التي تضمّ مجموعاتٍ من التاريخ والفن الآشوري، ووجد الثيران المجنحة والأرواح تخنق الاسود، والملك محاطاً بحاشيته وقواد جيشه. وعثر على لوحات الخطط الحربية وأساليب الحصار، وعلى مجاري الأنهر ومشاهد الصيد والحياة البيئية، وعلى معاجم اللغة الأشورية التي ساعدت على كشف هذه اللغة. عام 1844 نقل بوتا إلى باريس التحف الأثرية وأودعها متحق اللوفر في القاعة الأسيوية. وبعد مضي سنوات على بدء التنقيبات الأثرية نشرت حكومة فرنسا كتاباً لبوتا لخص فيه أعمال الحفر والتنقيب[29].

بعثة السر اوستن هنري لايارد البريطانية إلى الشرق.

كان لنجاح بوتا صدىً في الغرب. وكان يومها الضابط البريطاني لايارد يترحل في كردستان وقد بلغته اكتشافات بوتا، فانتقل إلى الموصل وقرر متابعة عمل سلفه الفرنسي في اكتشاف نينوى. بدأ لايارد التنقيب عام 1844 مزوّداً بتشجيعات السفير البريطاني في الآستانة، وأساطين العلم البريطانيين. وفي السنة الثانية قاده العمل والدرس لمجموعة من التلال الأثرية، للمرة الأولى، إلى موقع كالاح العاصمة الأشورية الشهيرة التي بناها شلمناصار أحد قدماء ملوك

الأشوريين حوالى سنة 1250 ق. م. فوجد فيها أهم فصول المدينة الأشورية. عام 1846 أزاح لايارد التراب عن المسلة السوداء من عهد شلمناصار الثاني (860-825 ق. م.). وعثر على قطع نحاسية تصور الملك بين الكهان وهو يقدم الذبيحة الآلهية، والموسيقيون يعزفون على آلاتهم وصندوقاً مرمرياً فيه لوحتان مسماريتان. وعثر أيضاً على هيكل تحيط به الأقنية الكثيرة كما كانت العادة في الهياكل الأشورية والبابلية.

إن بعض النجاح الذي أحرزه لايارد في نينوى وكالاح أثار فضوله لمتابعة البحث فوق تلال الشرقات الواقعة على الشاطىء الأيمن من دجلة على مسافة 60 ميلاً من الموصل. لم تكن الشرقات (آشور) مهمة بموقعها الأثري وبنفائسها فحسب، بل أودع ملوك آشور في خزائن هيكلها سجلاً تاريخياً تخليداً لحروبهم بل كانت تحفظ في خزائنها أهم أقسام التاريخ الأشوري.

عثر لايارد في آشور على البراءة الملوكية الشهيرة لتقلا تيلاسار الثاني. وقد أوكل حل مسماريتها إلى ثلاثة من العلماء، كل واحد منهم على حدة ليثق العالم من صحة اللغة الأشورية المكتشفة. فكانت الترجمة واحدة عند الثلاثة. وأعاد لايارد الكرة في البحث في آثار أشور سنة 1850، فعثر على مسلة الطين المشوي المثلثة اللغات التي تشتمل على سبعمائة سطر من عهد تقلا تيلاسار الثاني من ملوك نينوى الأولى حوالى 1100 ق. م. وهي التي عني بحل مغاليقها ثلاثة من علماء الآثار، وقبضوا على مفتاح الكتابة المسمارية[30]. بعد نجاح بعثتي بوتا ولايارد شجعت الحكومتان البريطانية والفرنسية إرسال بعثات التنقيب إلى الشرق لاستئناف الفتوح الأثرية. عام 1853 اكتشفت بعثة فرنسية قصر سنحاريب في تل فويونجق، وبعد مضي ستة أشهر عثر على قصر آشور بانيبال في القسم الشمالي من تل فويونجق. وفي الوقت نفسه انتدب المستشرق **إدورد روبنصن** للبحث عن الآثار المقدسة، وكل ما يتصل بالكتاب المقدس من قبل معهد الجمعية اللاهوتية في نيويورك ومعهد اندوفر اللاهوتي. بعد الدرس والبحث نشر روبنصن مؤلفه «البحث عن الآثار المقدسة في فلسطين والأقاليم المجاورة» في إنكلترا والمانيا وأميركا في آن واحد في ثلاثة أجزاء عام 1856[31].

عام 1908 أرسل المستشرق الفرنسي ماسينيون في بعثة أثرية فرنسية إلى بلاد النهرين حيث اكتشف قلعة الأخيضر ونشر كتابان عن الموضوع في معهد القاهرة.

أدّت اكتشافات البعثات الأثرية الغربية لعواصم الأشوريين والكلدانيين إلى بعث دراسات العصور الوسطى في نهاية القرن التاسع عشر على ضوء المنهج التاريخي، لا سيما فقه اللغة التاريخي، وأعطى الأولوية عند المستشرقين في ذلك الحين للدراسات الألسنية واللغوية.

العرب في كتابات المستشرقين

منذ عصر الاكتشافات الجغرافية ومطلع عصر التنوير الأوروبي كان الفكر الغربي يعيش في عالم لا تشاركه في صنعة الحضارات الأخرى. وعلى العموم كانت كتابات المستشرقين تنطلق من فرضية وضعوها على أساس شرق متخلف مقابل غرب متقدّم. أي كل شيء ينطلق من الغرب من أجل تجنّب صرامة المنطق العقلاني بهدف اصطناع منهجين: أحدهما للحضارة الشرقية والآخر للحضارة الغربية. وكل المحاولات والحركات لإبراز الشخصية القومية العربية منذ حوالي قرن لم يكن من شأنها أنْ تغير من نظرة الفكر الغربي إلى تاريخ الثقافة والعلم والحضارة المبني على المركزية الأوروبية، فبقدر ما كان الفكر الغربي يتقدّم في البناء الحضاري كان ذلك مصحوباً لديه بشعورين: أولهما، الشعور بأنّ اكتمال البناء الحضاري من الناحية المادية لا يمكن أنْ يكون إلاّ ضمن علاقة هيمنة على العالم الآخر. وضرورة الهيمنة المادية تصبح إرادة في نقل الحضارة والثقافة إلى هذا العالم الآخر. أما الشعور الثاني الذي واكب البناء الحضاري في أوروبا، فإنه كان يتعلق بالوعي الذي تكون خلال ذلك الغرب بذاته. ومضمون هذا الوعي أنَّ أوروبا مركز للحضارة والثقافة وللعقل في التاريخ. ضمن هذه الأيديولوجية يصبح كل التاريخ الثقافي والحضاري للعالم منطبقاً على التاريخ الأوروبي[32]. إن الرؤية الأيديولوجية للغرب عن الشرق لم تتبدّل بصورة نهائية بل تم فقط تغيير بعض بنيتها لتقديم رؤية أيديولوجية جديدة تحافظ على العناصر الأساسية في البنية الأيديولوجية القديمة. وبقي الفكر الغربي ينطلق من فرضيته التي تجعل من الغرب مركزاً للتاريخ والحضارة والإبداع العقلاني الفلسفي والعلمي. ولدى الفيلسوف الوجودي المعاصر /**هيدغر**/ نجد تعبيراً صريحاً ومركزاً عن جوهر المركزية الأوروبية. فهو يرى أنَّ عبارة الفلسفة الغربية تحصيل حاصل وتكرار لا معنى له، فلا وجود لفلسفة أخرى غيرها[33]

في البداية، وحتى أوائل القرن التاسع عشر كانت المواضيع التي عالجها المستشرقون تهدف إلى تكوين معرفة عن الميدان الذي يعرقل إخضاع الوعي العربي للنفوذ

الغـربي. وفي مرحلة لاحقـة كـانت المواضيـع قـد انيـطت بمتخصصـين في شؤون الشرق لخدمـة السيـطرة الغـربيـة المباشرة. ولقد تهيـأت رؤية فكـرية في القـرن الثـاني عشر واتسعت في القرون اللاحقـة وحتى العصر الاستعماري. هذه الرؤية تنطلق من العـداء للنبي محمد والعـرب اللذين أوقفا اندفاع المسيحية في العالم. لقد أثارت مسألـة بدايـات الدعوة الإسلامية الجدل والنزاع، قديماً، ومـا تزال، حـول طبيعة وخصوصية هذه الدعوة التـوحيديـة في الغرب. كـما أظهـرت أيضاً غمـوض شخصية حـامل الـدعـوة، وتنـوّع تـأويلها. ويشـير المستشرق سـورديـل أنّ هنـاك مؤرخين (غـربيين فضّلوا من عهـد قريب، تقـديم محمـد عـلى أنـه صاحب أيديـولوجيـا، وليس «عبقريـاً دينياً»، أو نبيـاً، كما كان يحصل، على العموم في السـابق. فقد وفق محمـد بهذا المعنى إلى وضع نظام جديد من القيم يقتضي تصـوراً دينياً، وخصـوصـاً نـظاماً اجتـماعياً جـديداً، سمـح له، من أجـل إنجاحه، باللجوء إلى أية وسيلة، وحتى إلى ممارسـة الأعمال الانتقامية، التي لم تكن مؤشر نفس نبيلة عظيمة. **فمكسيم رودنسون**، الذي يعتمـد هذا الـرأي في رؤية الأشيـاء، لم يتردّد في تشبيه النبوة الإسلامية بواحدة من هذه «الخـرافات الأسطورية التي تتمشى مع التاريخ والتي تدعمهـا القوة»، خرافات تعجز الحقيقة عن مواجهتها[34]».

أمّا عند الـرحالـة فولني فنجـد في مؤلفه «الآثـار» اتهامـاً للنبي محمد باستخدام الدين لمشاريعه في السيطرة ولتطلعاته الـدنيـويـة[35]. في حين يتهم المستشرق الفـرنسي **لـويس ماسينيون** النبي بـالسلبية لأنـه لم يأتِ بحقيقـة جديـدة ولا بالسلام[36]. عام 1907 نشر في نيويورك كتاب للمتخصص في الدراسات الإسـلامية Samuel Zwemer، أشـار فيه إلى عجز الإسلام عن تحقيق التطلعات والإدراك البشريـين من النواحي الفكرية والروحيـة والأخلاقيـة. ويخلص فيما بعـد إلى دعوة المسيحيين لبذل الجهد لهـداية الأجيـال الإسلاميـة الحـاضرة، وأنكـر إمكـانيـة الإسـلام في خـدمـة التقـدم والطموحات الحديثة[37].

وقد أوجد الغرب أساطـير عن النبي محمد وشخصيتـه، من الأخـطاء غير المعقـولة والتهجـمات الجـدلية الـبذيئـة. فصوره دانتي رئيساً للهراطقة لأنـه اعتبره نـاشراً للوشـايات والفضائح والشقاق. وبعد عصر الإصلاح في أوروبا ذاعت أسـطورة تصوّر النبي كردينالاً طمـوحاً مغلوبـاً عـلى أمـره، أقدم، على أثر فشله في الفوز بكرسي البابـوية، عـلى ادعاء النبوة[38] واستمرت حالة التعصّب الـديني الأوروبي ظاهـرة في التاريخ الحـديث في مؤلفات عـدد من العلماء المعاصرين مستـترة في الغالب وراء الحـواشي المرصـوصة في الأبحـاث العلمية. ومن الشائعات التي تناولت الدعوة الإسلامية انها ترتكز على القدرية التي تقتل كل طاقة في الإنسان. وينتقل الهجوم الغـربي من البنى إلى العـرب الـذين قـامت عـلى كاهلهم الدعوة الإسلاميـة عند انـطلاقتها. فيشـير **ريجيس بلاستير** إلى انطباعه عن العربي بما يلي «فالصيد والاختطاف والحرب شغله الشاغـل في الليل والنهـار، ولا يحلم الراعي البسيط أو شبـه المتحضر بسـواهـا. زدْ عـلى ذلـك رواسب بعيدة من الفقر والحرمان واصطفاء طبيعيـاً لا هوادة فيـه في المجتمع البدوي يعـززان هذا المـران القاسي فيجعـلان من العربي بصورة عـامة رجـلاً سفاكاً متكبّراً حتى في حـالات البؤس، سريع الانفعال والغضب، ميالاً إلى ازدراء حياتـه وحياة الآخرين معجباً بالقوة مهما كـانت نتائجهـا[39]». غير أنّ السمـة العامـة للدراسات الشرقيـة والتي كـانت قـائمـة لأهداف دينية مسيحية في العصور الوسطى لم تجدها الدول الغربية تفي بالغرض المطلوب لتحقيق أغراضها في السيطرة على البلدان العربية. فمرحلة التـوسع الاستعـماري تتطلب دراسات استشراقية تتـماشى والتغيرات المستجـدة في الدولـة العثمانية وحالة التذمر العربية من التسلط العثماني الإقطاعي بغلاف إسلامي. كان الهمّ في إيجاد متخصّصـين في اللغات الشرقيـة وبـاحثـين جـديـرين في مختلف الميـادين. في هـذه المرحلة برز تباين في طروحات المستشرقين تبعاً للتنازع بـين الدول الغربية الطامحة في السيطرة على العالم العـربي. فأدّى التنازع الاستعماري الفرنسي البريطاني على الوطن العربي في مـطلع القـرن العشرين إلى دفـع كـلا الـدولتـين لتعـزيـز مؤسسات الاستشراق لديهما ولتموين عدة مجلات وجمعيـات بالأموال لتنطق باسمهـا. تزامن ذلـك مع استنهـاض قومي عربي أخذ يعبر عن نفسه في جمعيات وأنديـة عربيـة، علنية وسرية، في المناطق العربية والآستانة. كانت منطلقات هذه الجمعيـات والأنديـة ترتكـز على مـواجهـة سيـاسـة القهـر والاستغـلال العثمانيـة، ومن ثم في مرحلة لاحقـة لمناهضـة حملة التتريك للعناصر غير العثمانية.

في هـذا الظرف، انصب جهـد المؤسسات الاستشراقيـة عـلى البحث المعمق في التراث العـربي من عادات وتقـاليـد وغـيرها بهـدف تعميق الهوة بـين الأتراك والعـرب لتسهيـل عملية الفصل بينهما. تلازم هذا التوجـه مع إدخـال عناصر مؤيدة محلياً لسياسة الغرب في الجمعيات العربية السرية.

وعندما شعر الغرب بعمق التباعد العثماني العربي ـ وهـو الذي دفع إليه بما يملك من قـوة تأثير في عاصمـة الخلافـة العثمانية لمواقف التطرف من الشعوب غير العثمانية ـ ارتـاب من النهوض القومي العربي وعمل من خلال مستشرقيه على

دعوات قومية مناهضة للقومية العربية في الوسط العربي تحل فيه الطائفة الدينية مكانَ الأمة القومية. وشجع الغرب على استخدام اللهجات العامية مكان اللغة العربية بعد أن بذل مستشرقون جهوداً مضنية لإحياء هذه اللهجات وكتابتها بالحروف اللاتينية. كما جرت محاولات لتشويه الحضارة العربية الإسلامية، والتقليل من أهميتها في تاريخ الحضارة الإنسانية. وتبارى الباحثون من المستشرقين وغيرهم من تشويه التاريخ العربي وتحقير العرب وتقليص دورهم الحضاري إلى دور الحافظ لحضارة اليونان والرومان، الناقل لها فحسب وتجاهل الإبداع العربي والمساهمة العربية في نمو الحضارة الإنسانية وتقدم البشرية. كان **لويس ماسينيون** المستشرق الفرنسي من أوائل الداعين في المغرب ومصر وسوريا ولبنان للكتابة باللغة العامية بالحرف اللاتيني[40]، كما نشرت **مجلة لاروس** الفرنسية فصلاً عن العالم العربي فيه التمويهات التالية:

- العالم العربي هو مصر والشام والعراق والحجاز واليمن ونجد مساحته ثلاثة ملايين كلم².

إنّ نصارى لبنان هم الذين بعثوا النهضة العربية.

- البربر وحدهم أصحاب المدنية في شمال أفريقيا والأندلس[41].

وفي سياق مواجهة النهوض القومي العربي فقد خصص حيز واسعٌ للأقليات الدينية والاثنية في دراسة تاريخ العرب والإسلام. كان اهتمام المؤرخ الاجتماعي يتجه نحو وضع هذه الأقليات، كما يتجه اهتمام مؤرخ الثقافة نحو مناطق المواجهة والتأثير وجهات الاختلاط. كان التركيز على مسألة الأقليات لجعلها مطية محلية للولوج إلى البلدان العربية بحجة حمايتها في حوادث يفتعلها قناصل وسفراء البلدان الأوروبية إبان الحكم العثماني وفي مرحلة الانتداب.

بعد الحرب الأولى تولت مجلة الاستشراق الفرنسية **«العالم الإسلامي»** نشر مذكرات الأقليات الدينية والإثنية المرفوعة إلى مؤتمر الصلح في باريس، والمطالبة بإنشاء دويلات قومية لها في الشرق العربي[42] كان ذلك تمشياً مع السياسة الفرنسية الاستعمارية المعلنة آنذاك والقائمة «على حماية الأقليات الدينية، مع إظهار ميل قليل لفكرة القومية العربية»[43]. وبناءً على هذه السياسة تمّ بعث الدعوات القومية المناهضة للقومية العربية وقد ساهم المستشرقون في دراساتهم على بعث هذه الدعوات استناداً على عوامل موجودة في واقع التشكيلات المذهبية والدينية والطائفية في الشعب العربي. فعملوا على تكوين تماسك معيّن على

الصعيد الأيديولوجي والثقافي لأجزاء أو عناصر من القومية العربية الواحدة، على حساب عملية استمرار التكوين والتبلور القومي. وقد لعب المستشرق البلجيكي الأصل هنري لامنس دوراً في استحضار تاريخي وثقافي للشعب القاطن في بلاد الشام خدمة للمخطط الاستعماري الفرنسي في هذه المنطقة. فبعد تطبيق الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان اصطحب الجنرال غورو الأب **لامنس** إلى بيروت للإشراف على معهد تخريج ضباط الإدارة في بلدان المشرق. وكلف **لامنس** بإعطاء دروس تاريخية تؤكد على وحدة الشعب السوري منذ القدم وتحيي «الوجدان القومي» السوري في حدوده الطبيعية التي تتّفق مع منطق الحزب الاستعماري الفرنسي الداعي للسيطرة على كامل سوريا الطبيعية. وبما أنّ المعهد لم يفتح فقد حول **لامنس** محاضراته إلى كتاب نشر في بيروت عام 1921[44]. واستمرت الدراسات المتعلقة بالأقليات على نحو يتلاءم مع المخططات الاستعمارية. وتلازمت مع حملة التشكيك بالهوية العربية. ففي كتاب المستشرق الإنكليزي **برنارد لويس** «العرب في التاريخ» يلحظ في المقدمة تشكيكاً في هوية بعض المنتمين للعروبة فيقول: «هل العربي هو من يتكلّم العربية لغة أصلية له؟ هذا الجواب مقنع عند النظرة الأولى، ولكن ثمة صعوبات. فهل اليهودي العراقي أو اليمني الناطق بالعربية، وهل النصراني المصري أو اللبناني الناطق بالعربية عربي؟ قد يظفر الباحث بأجوبة مختلفة بين هؤلاء الناس أنفسهم وبين جيرانهم المسلمين. بل هل المسلم المصري الناطق بالعربية عربي؟ إنّ كثرة منهم يعتبرون أنفسهم كذلك. غير أنّ هذا لا ينطبق على جميعهم»[45].

بدون شكّ أدّى اهتمام بعض المستشرقين قديماً وحديثاً بالأقليات إلى خدمة السيطرة الغربية على العالم العربي. فظهرت حصيلته في زماننا المعاصر في انتعاش طروحات مثال التعددية الثقافية لإعاقة نضج الشرط الذاتي لحركة التحرر العربية. هذه التعددية كالفينيقية والفرعونية والبربرية تبذل محاولات لإحيائها بأدلجتها ونقلها من حضورها كتراث يخصّ مجموع الأمة إلى أيديولوجية ثقافية ترفعها فئة أو قوة اجتماعية معينة لأغراض معادية للعروبة في البلدان التي تنطلق منها هذه الدعوات. وفي هذا الإطار الذي تطرح فيه مسألة التعددية، تتعاطى الأمبريالية مباشرة مع هذه المسألة عبر أجهزة أيديولوجية تهيء المعطيات التاريخية والواقعية الراهنة التي يحثّها الاستشراق لإعادة صياغتها وفق المنطق الذي يبرر توجهها التفتيتي.

ولكن مهما وُجّه للمستشرقين من تُهم تطال أهدافهم، لا شكّ أنهم حفظوا أجزاء هامة من تراثنا المجهول أو المهمل، وقد كان موقف كثيرين من مثقفي العرب منهم كثير الإيجابية. فهم عند محمد كرد علي وسطاء يهدفون إلى «تقريب القلوب ورفع غشاوات الجهل والتجاهل». ويضيف: «قد علمونا بما أحيوه دروساً في تاريخ أمتنا ومدينة أجدادنا كنا نجهلها»[46]. غير أنَّ وجه المشكلة في الاستشراق تبقى، لدى المؤرخين العرب، معرفة تداخل الأبحاث العلمية، والأدبية البحتة، في مجمل المخطط الغربي الذي كان يطال الوطن العربي وعملية الفصل بينهما.

د. علي شعيب
[الجامعة اللبنانية]

الهوامش والمراجع

(1) A. Cabaton: *L'orientalisme musulman et l'Italie moderne:* Revue du monde musulman tome 21,24 année 1914 p. 7.

(2) د. البطريق عبد الحميد ود. نوار عبد العزيز: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية 1971، ص 14 و39. بيروت.

(3) ـ سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب ص 80، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1977.

(4) ـ العقيقي نجيب، المستشرقون، ص 114، الجزء الأول، طبعة ثالثة منقحة، دار المعارف بمصر 1964.

(5) د. زيادة خالد، اكتشاف التقدم الأوروبي: دراسة في المؤثرات الأوروبية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، ص 14. دار الطليعة بيروت 1981.

(6) دراج فيصل، شكل الفكر القومي العربي في القرن التاسع عشر، مجلة المستقبل العربي، العدد 3، أيلول 1978.

(7) د. عبد الملك أنور: الاستشراق في أزمة، ترجمة حسن قبيسي، ص 71. مجلة الفكر العربي عدد كانون الثاني ـ آذار 1983. السنة الخامسة ـ بيروت.

(8) *Actes du 6 éme congrès international des orientalistes tenu en 1883 à Leid (pays bas).* p. 20 et 21 imprimés 1972 paris.

في هذا المؤتمر تقدم لأول مرة بحث لمواطن عربي وهو الياس عيد بك قدسي قنصل دولة هولنده في دمشق تحت عنوان (نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية).

(9) زكي باشا أحمد: السفر إلى المؤتمر، وهي الرسالة التي كتبها أثناء سياحته حينما توجه إلى لندن للنيابة عن الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين الدولي التاسع، المطبعة الأميرية القاهرة 1899.

(10) سعيد إدوارد: مصدر مذكور ص 216.

(11) General Weygand: *La France en mediterranée oriental.* Revue des deux mondes Avril 1937 p. 517 Paris.

(12) Voir: *Annales des Géographie tome XXXVI,* année 1927 p. 336-346 paris 1967.

(13) *Revue du monde musulman,* tome 27, année 1914 p. 356.

(15) جعيط هشام، أوروبا والإسلام، ترجمة د. طلال عتريسي دار الحقيقة بيروت 1980 ص 156.

(14) Idem tome 9, année 1909 paris 1974 p. 156

(16) Voir l'article de A. Cabaton: *L'orientaliste musulman et L'Italie moderne.* R. du monde musulman tome 21-27 année 1914.

(17) L. Bouvat: *oriente Moderno R. du monde musulman,* tome 47 année 1920 p. 146-155.

(18) محافظة علي: موقف فرنسا والمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية 1919-1945 ص 436-437 مركز دراسات الوحدة العربية بيروت 1985.

(19) المصدر نفسه ص 323.

(20) Bernard vernier: *La politique islamique de l'allemagne centre d'étude politique étrangère section d'information.* p. 28. paris 1939.

(21) اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي (معهد الاستشراق) الإسلام في تاريخ شعوب الشرق، ترجمة محمد هلال وعلي مهدي، دار الفارابي بيروت 1986، المقدمة.

(22) المصدر نفسه ص 134.

(23) عبد الملك أنور: مصدر مذكور ص 76.

(24) داغر أسعد يوسف: الأصول العربية للدراسات اللبنانية، منشورات الجامعة اللبنانية، ص 2 بيروت 1972.

(25) الخوري قسطنطين الباشا: محاضرة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليك في مصر القاها في النادي الكاثوليكي في القاهرة 27 شباط 1930، مطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) بدون تاريخ ص 39 و40.

(26) شكري فؤاد محمد: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ص 635-636 ـ دار الفكر العربي بدون تاريخ للطباعة.

(27) الخوري سليمان الصائغ، انبعاث الدفين من بين خرائب

آشور. مجلة الكتاب، مجلد4، جزء12، أيلول 1947 ص 1848 القاهرة.

(28) موهل 1876-1800. Mohel. J.

ولد في شتو تجارت بالمانيا حيث تخرج باللغات الشرقية وعندما قدم باريس عين استاذاً للفارسية في معهد فرنسا 1847 وانتخب عضواً في الجمعية الآسيوية.

(29) **الخوري سليمان الصائغ**، مصدر مذكور ص 1852.

(30) المصدر نفسه ص 1855.

(31) **روبنصن إدوارد**: مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، ترجمة اسد شيخاني، الجزء الأول، منشورات وزارة التربية اللبنانية 1949 المقدمة.

(32) **وقيدي محمد** العلوم الإنسانية والأيديولوجيا، دار الطليعة، بيروت 1983، ص 142-143.

(33) **د. السقاف أبو بكر**، ملاحظة نقدية حول المركزية الأوروبية، مجلة الحكمة، عدد 45 تشرين الثاني 1975، ص 18.

(34) **سورديل دومنيك**، الإسلام في القرون الوسطى، ترجمة علي المقلد، بيروت 1983، دار التنوير ص 32.

(35) **جعيط هشام**، مصدر مذكور ص 32.

(36) Mayek.M. *L. Massignon fâce à l'islam.* L'herue massignon, éditions de l'herue p. 190 paris.

(37) R. du monde musulman, tome 7, année 1909, p. 190.

(38) **لويس برنارد**، العرب في التاريخ، تعريب نبيه فارس ومحمد زايد، دار العلم للملايين، بيروت 1954، ص 62 و23.

(39) **د. بلاستير**، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، تعريب د. إبراهيم كيلاني، دار الفكر بيروت، 1956 ص 37.

(40) **د. فروخ عمر ود. الخالدي مصطفى**، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، المكتبة العصرية، صيدا ص 224، الطبعة الخامسة 1973.

(41) المصدر نفسه، ص 220.

(42) R. du monde musulman tome 40 et 41 année 1920 paris 1974 La Question assyro-chaldeenne devant la conference de la parisc, p. 153-155.

(43) Secrétariat d'Etad à la présidence du Conseil et à L'information, paris le 2 Juillet 1946, Note dolunnentaire, et étude, No. 342 «Les pays arabes et l'union arabe».

(44) H. Lammens: *La Syrie precis historique Volume I, p. 4 et 5 imp. catholique Beyrouth 1921.*

(45) **لويس برنارد**، مصدر مذكور ص 7 و8.

(46) **كرد علي محمد**، الإسلام والحضارة العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1968، انظر ص 60 وص 14.